هل يعود للأمة ضميرها؟!

الثلاثاء 13 مارس 2012 12:03 م

د. محمد القاضي

إن أعظم جريمة ارتكبها حسني مبارك على مدار ثلاثين سنة حكم فيها مصر هي أنه استطاع أن يقتل الضمير في قطاعات كبيرة من الشعب.. لابد أن نكون صرحاء مع أنفسنا.. هذه هى الحقيقة المرة التى نعيشها.. مشكلتنا الحقيقة ومعاناتنا الكبرى هو الواقع الذى عليه المجتمع.. هو الفساد المتغلغل فى كل مؤسساتنا السياسية والتعليمية والاقتصادية والثقافية والفكرية.. فساد زرعه مبارك وأعوانه وظلوا طوال سنوات حكمه يتعهدونه بالرعاية، فاستشرى الفساد وتغلل وتعمق وتجذر.. ولن يتمكن المخلصون من أبناء الوطن من اقتلاعه واجتثاثه بسهولة ويسر .. وسنحتاج إلى جهود جبارة وعزائم قوية لاقتلاعه وغرس القيم الرفيعة والأخلاق الكريمة والسلوكيات الراشدة في المجتمع.. والمرحلة الحالية تحتاج إلى إخلاص الغيورين على هذا الوطن وتحتاج إلى إنكار الذات وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الشخصية.. وتحتاج إلى تكاتف الجهود لإعادة ضمير الأمة! ضمير الأمة الذى يستمد قوته من الدين السمح دين الوسطية والاعتدال دين التيسير ورفع الحرج حتى تشيع بين أفراد المجتمع السكينة والأمن، والرضا والأمل، والحب والشعور بالكرامة، فنشق طريقنا إلى السعادة والرقي والاستقرار.

وكما يقول العلامة الدكتور القرضاوي: أخص ما يميز المجتمع الراقي، المجتمع الفاضل، المجتمع السعيد هو التماسك والترابط. المجتمع الفاضل هو الذي يتعارف أبناؤه فلا يتناكرون، ويتحابون فلا يتباغضون، ويتعاونون فلا يتخاذلون. ويتعاملون فيما بينهم بالعدل والرحمة، فلا يبغي بعضهم على بعض، ولا يقسو بعضهم على بعض، فلا ينسى الواجد المحروم، ولا يهمل القادر العاجز، ولا يأكل الكبير الصغير كالسمك، ولا يعدو القوي على الضعيف كسكان الغابة.

وشر ما يعيب المجتمع هو التفكك وضعف الروابط بين أبنائه، وذلك بغلبة الأنانية على أنفسهم، فيذكر المرء نفسه وينسى أخاه، ويقول كل واحد: نفسي نفسي، ولا يبالي أن يجعل من الناس قرابين تقدم لإله أطماعه وشهواته.

شر ما يصيب المجتمع: أن يقول كل فرد فيه: لي، ولا يقول: على ... أن تتضخم "أنا"، في نفسه على حساب غيره. فينظر إلى نفسه نظرة استعلاء واستكبار، وإلى الناس نظرة الازدراء والاحتقار.

إذن فلابد من حد وسط يقف عنده الفرد، يحس بذاته وكرامته إحساساً لا ينال من ذات غيره وكرامته وحقه باعتباره إنساناً ... وبذلك يعمل أبناء المجتمع معاً، ويسيرون إلى الهدف المشترك جنباً إلى جنب، متعاونين على البر والتقوى، متواصين بالحق والصبر.

والمجتمع في حاجة إلى ضوابط تحكم علاقاته ومعاملاته بعضه لبعض، فلا تطغى الغريزة على العقل، ولا القوة على الحق، ولا الهوى على الواجب، ولا المنفعة الخاصة على المصلحة العامة، وهذه الضوابط لا تؤدي مهمتها، إن لم تكن ضوابط أخلاقية، مبعثها النفس، ومصدرها الضمير.

ولهذا كان كل بناء أو إصلاح أو تغيير اجتماعي لا يقوم على إصلاح الأنفس وإيقاظ الضمائر، وتربية الأخلاق، أشبه ببناء على كثبان من الرمال.

والدين -بلا ريب- هو أعظم مدد للضمير، وأقوى «مولِّد» يغذيه ويمده «بالتيار» الذى يمنحه الضوء والحرارة والقوة المحركة.

إن الضمير الذى يربيه الدين برقابة الله وبحساب الآخرة ضمير حي يقظ مرهف الحساسية، يحاسب الإنسان قبل أن يقوم على العمل، إن صلة الدين بالضمير صلة هيمنة وتوجيه وإرشاد وسيطرة؛ إنها صلة هيمنة تستمر مدى الحياة وإذا ما زالت هذه الهيمنة في أي فترة من فترات الحياة، فإن الضمير يختل اتزانه وتوازنه، ويتأرجح ويتذبذب، لأنه يحتاج باستمرار إلى القائد المربى، وليس القائد المربى إلا الدين.

الأمـة تحتـاج إلى هـذا النوع من الضـمير الـذى يحقـق الخير الكامـل لأنه يحرص على أن يحكم الإنسـانَ في كـل علاقـاته ضوابـط محـددة، وأخلاقيـات عاليـة، وآداب رفيعـة، تضمن له النجـاح فى كل أنواع التعامل: التعامل مع الله ومع النفس ومع الناس ومع كل شـيء من حوله (البيئة وما فيها من أشياء) وإذا أخلّ الإنسان فى تعامله مع أى جانب من هذه الجوانب ينتقص ذلك من مكانته ويقلل من درجته

والإنسـان السوى هو الـذى يعطى لكـل ذي حق حقه، ويحسن التعامـل في كـل شـيء، "إن الله كتب الإحسـان على كـل شـيء".. فهيا بنا نضع أيـدينا في أيـدي بعضـنا نتعـاون فيمـا اتفقنا عليه ويعـذر بعضـنا بعضـا فيمـا اختلفنا فيه ونجعل مصـلحة الوطن فـوق مصـالحنا الشخصية ونقاوم الفساد في كل مكان بكل ما نستطيع من قوة، حتى نعيد للأمة ضميرها الذى سلب منها